# المقدمة

إذا أخذنا في الاعتبار ما يبدو في الظاهر أنه منظمة صغيرة تعالج قضايا التجارة المبهمة مقرها جنيف، فمما يدعو للعجب أن تثير منظمة التجارة العالمية World Trade Organization (اختصاراً WTO) درجات مذهلة من الاهتمام الشعبي والعواطف والحدة الدرامية. ففي آخر لقاء للمنظمة رفيع المستوى في كانكون في عام 2003 حركت منظمات غير حكومية تظاهرات ضخمة مناهضة للمنظمة، وهددت البلدان المشاركة بالانسحاب من المؤتمر، كما عمد مزارع كوري جنوبي إلى الانتحار تعبيراً عن رأيه في قوانين المنظمة بما يخص الزراعة. إلا أن ما حدث في كانكون ليس بالأمر الغريب بأي حال؛ فمعظم اللقاءات التي تعقدها المنظمة على المستوى الوزاري صارت ترتبط بالاحتجاجات العاصفة والجماهير الغاضبة.

وليست بالقليلة تلك الكتب والبحوث التي تعرض بالتفصيل الشروح والتفسيرات الاقتصادية والقانونية لاتفاقيات WTO. كذلك هناك الكثير من المقالات التي وضعها ناشطون في المجتمع المدني ـ وبعضها أقل من سواها من حيث الحصافة وحسن التقدير ـ لأغراض التأييد السياسي. بيد أن التحليلات التي تركز على سياسة تلك المنظمة يندر أن نقع عليها. لذا يسعى هذا الكتاب إلى ردم هذا الفراغ، محاولاً الوصول إلى قلب منظمة WTO من حيث كونها منظمة دولية وإلى السياسة التي تسم أصولها وعملها وتطورها.

ثمة جانبان من هذا الكتاب جديران بالإبراز. أولهما أن نهجي الأساسي في دراسة منظمة التجارة العالمية من حيث كونها مؤسسة دولية يتم عبر عدسات عملية التفاوض. وبتحليل التفاعل الدائم بين البنى القائمة والعمليات الأساسية الفاعلة، أقدم عرضاً لا يقتصر على المساومة المبدئية التي أدت إلى إنشاء هذه المنظمة وحسب، وإنما أبين أيضاً كيف نشأت المنظمة وما يتصل بالانتساب إليها وصلاحياتها وعملها اليومي. كذلك من المحتمل أن نهج الاعتماد وعملية التفاوض قد قطعت شوطاً طويلاً في تحديد ما وصلت إليه منظمة التجارة العالمية. وليس التصميم العقلاني للمؤسسة. ثانيهما، تشكل البلدان النامية جزءاً لا يتجزأ من القصة التي نعرض لها ههنا. وهذه العناية التي نوليها للدول النامية ليست ما كنت قد قصدته في البداية. غير أن كل ما اكتشفته في أبحاثي إنما كان يشير باستمرار إلى اتجاه كان مهملاً إلى حد بعيد، قصدت: الرابط بين اللاتماثل في القوة والمؤسسات الدولية. وقد وجدت أن القوى المتفاوتة بين الدول المتقدمة والدول النامية كان له الدور الحاسم في إنشاء وتشكيل منظمة التجارة العالمية، وأن المؤسسة ذاتها أحدثت التفاوت في القوى بطرق مختلفة عديدة. ونتيجة لذلك وجدت أن القوة والتهميش والنقمة والتنمية موضوعات رئيسة (ثيمات) تتكرر في هذا الكتاب.

كذلك شئت الدخول مباشرة في المناقشات العامة الكثيرة حول منظمة التجارة العالمية. فالواقع أن المنظمة تمثل خليطاً أخاذاً من التناقضات. ذلك أن هذه المؤسسة الأصغر والأحدث بين المنظمات

الاقتصادية الدولية الثلاث (الأخريان صندوق النقد الدولي والبنك الدولي). بيد أن WTO تسن قوانين غالباً ما تمتد وتصل إلى مجالات تقع ضمن السلطات المحلية للدول. والتي يجب على كل الأعضاء المائة وسبعة وأربعين الانصياع لها. والحق أن العديد من نشاطات منظمة التجارة العالمية تقع في نطاق سياسة التجارة الغامضة والمقصورة على فئة قليلة. بيد أن الأثر العميق والبعيد الذي تنطوي عليه قوانينها بالنسبة لحياة الناس اليومية يعني إنها مؤسسة لا يقتصر الاهتمام بها على الاقتصاديين وحسب. فعلى الورق تبدو منظمة WTO الأكثر ديمقراطية من حيث الإجراءات بين المنظمات الثلاث؛ وأما في الممارسة فنجد أن هذه المنظمة صارت هدفاً لنقد هائل بسبب «جو النادي الإنكليزي» الذي يكاد يغلب عليها واجتماعاتها المحصورة بأعضاء دون سواهم. وتتهم، في البيانات وسواها، بالتقاعس عن بذل ما يكفي من الجهود، كما تتهم في الوقت ذاته ببذل أكثر مما يتوقع منها: ويذهب بعضهم إلى القول أنه ينبغي على WTO أن تشمل اهتماماتها قضايا العمال والجندر والتنمية، فيما يخشى آخرون من نوازعها التوسعية. والاقتراحات المتناقضة حول الإصلاحات التي تمس المؤسسة في ازدياد. وهناك من يعشق WTO، وهناك كثيرون من يحطون من شأنها. ولذلك نأمل في هذا الكتاب أن يؤدي عرض واقع WTO وتفسير تطورها وأغراضها وتأثيراتها السياسية إلى مساعدة القارئ على الخوض في المياه العكرة لسياسة التجارة الدولية.

# تنويـــه

اعتـمدت أثناء البـحث في هذا الكتـاب بشكل واسع على مـقابلات أجريتها مع مفاوضين في التجارة وبيروقراطيين في مؤسسات دولية بدءاً من مؤتمرات الأمم المتحدة حول التجارة والتنمية وتطوير منظمة التجارة العالمية. والأسماء أكثر مما يمكن بيانها بالتفصيل في هذا الحيز، كما أن الكثير منهم سعوا إلى إحاطة أسمائهم بالكتمان، لأسباب لا تخفى. وإنني شديدة الامتنان لهؤلاء الأشخاص لما بدر منهم من كرم في اطلاعي على خبراتهم وهمومهم.

وأدين بامـــتنان خـــاص لكل من «جـــون أوديل» و«ديانا توسي» للمحادثات المطولة والملهمة العديدة حول سياسة التجارة على مدى السنين. ولقد كان لما قدماه لي من توجيه وإرشاد أثر دائم لا يقدر بثمن على بحثي، وكل نقاش معهما كان ممتعاً بقدر ما كان ثقفاً منيراً وخالداً في الذاكرة.

كذلك أجدني مدينة لأندرو هوريل وديزموند كينغ للكثير من القضايا المحرضة على الاهتمام والأفكار التي استقصيناها معاً في مجالات ممتعة في نفيلد كوليج؛ فبدون مؤازرتهما الفكرية وتشجيعهما ما كان لمشروع الكتاب هذا أن يرى النور.

وهناك زملاء وأصدقاء أسهموا في إغناء هذا الكتاب بطرق حاسمة من قراءة مخطوطة الكتاب (أو أجزاء منه) والتعليق على ما ورد فيه، وكانت لهم مناقشات مثمرة في موضوعه، وتقديم

الدعم المعنوي لي. وأود أن أوجه شكري، على وجه الخصوص إلى ايوان هاريسون وكونراد بناجيك، وثيو فاريل وستيف ماكغواير، وميته ـ ايلستروب سافجيوفاني.

ولقد أسهم «آلان رينويك» في الكتاب منذ البداية ثم وجدته إلى جانبي مؤازراً، وموفراً لي اقتراحات بناءة ومفصلة بشأن مخطوطة الكتاب.

وأجدني شاكرة للمؤسسات التي قدمت الدعم لهذا المشروع. فقد وفرت مؤسسة نفيلد تمويل فترة الإجازة للقيام بالبحث، وإني لممتنة على الخصوص للأمناء وللسيد لويس بورغيس لما أبدوه من اهتمام ومؤازرة دائمة. ولقد كانت التسهيلات التي توافرت لي في مكتبة بودليان حاسمة في المراحل المبكرة من مشروع البحث، كذلك كان الحال في انتساب البحث الذي قمت به إلى «مركز الدراسات الدولية» بجامعة أكسفورد. كما أن دعم الزملاء في مركز الدراسات الدولية بجامعة كمبردج وفي نيوهام كوليج وفر لي البيئة المثالية لإتمام البحث. ويجدر بي في هذا المقام أن أتوجه بالشكر على وجه الخصوص إلى كريس هيل، واونورا اونيل وتيري آبتر.

كما أن محررة هذه السلسلة مارشا فيليون التي تولت رعاية المشروع بالحرص والعناية والصبر منذ بدايته حتى إنجازه، تستحق مني أقصى التقدير. وإني لأشكر لها ولزملائها في دار النشر والمطبعة بجامعة أكسفورد، وخاصة جيمس تومبسون الذي دأب على العمل بقدر عالٍ من الكفاءة ليكفل صدور الكتاب حسب الجدول في وقت محدد جداً. ولقد أفاد الاقتراح الأساس والمخطوطة ذاتها من تعليقات ثلاثة محكمين مجهولين مني.

وأود أن أتوجه بالشكر الجزيل لوالدي الإنكليزيين، «ليندا وموريتون مور» لصداقتهما وإخلاصهما، وكذلك الحال مع ديفيد آرمسترونغ وماغي آرمسترونغ، وكارولين لمباردو، وجون لف ورايتشل ميورز، وماثان سانشيثانانثان وإد تارت.

ولكن أعظم الدين حق لوالدي آرونا وآنانت نارليكار. وكان آنانت الذي يدرس عادة فيزياء البرودة متمكناً في التعليق العميق على درجات الحرارة العالية التي أحاطت بسياسة التجارة. وقد أفسحت لي آرونا من وقتها، رغم برنامجها اليومي الحافل، لتعرض أفكاراً جديدة وتطرح قضايا، وتطالع مسودات وأوراقاً منقحة، وتقدم تعليقات أفدت منها كثيراً في وضع هذا الكتاب. وما كان لهذا الكتاب أن يدون لولا ملاحظاتهما النقدية وتشجيعهما الدائم.

كذلك كانت ذكرى صديقي بتاشا مصدر وحي دائم. ولكنني وحدي المسؤولة عن أي خطأ تصادف وجوده في صفحات الكتاب.